بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة رواد الإصلاح في مغرب ق 20

محمد بن عبد الكبير الكتاني: سيرته، مشروعه الإصلاحي

الدكتوراه: أسماء غيلان

المطلب الأول: سيرته

ولد محمد بن عبد الكبير الكتاني سنة 1873م، في أسرة فاسية شهيرة بالعلم والتصوف. أدخله والده الكتاب في سن مبكرة، فحفظ القرآن الكريم وبعض المتون العلمية. عقبه انخرط في سلك طلبة العلم بجامع القرويين. لازم نحوا من عشرين شيخا، وعلى رأسهم والده عبد الكبير بن محمد الكتاني، وابن خاله محمد بن جعفر الكتاني، ومحمد بن قاسم القادري الحسني، وأحمد ابن خالد الناصري السلاوي، وأحمد ابن الخياط، والتهامي ابن المدني كنون وغيرهم كثير.[1]

روى عن شيوخ كثر، منهم: والده، وماء العينين الحسني الشنقيطي، وحبيب الرحمان الهندي، وأحمد بن صالح العباسي السويدي...انسند لستة عشر فهرسا من فهارس المشارقة والمغاربة، كفهرس الشيخ عابد السندي المسمى "حصر الشارد" فرواه عن والده عن عبد الغني الدهلوي عنه، وهو ثاني رجل أدخله المغرب.[2]

حرص على لقاء العلماء ودعاة الإصلاح أثناء رحلته للحج ، كما حرص على لقاء من دخل منهم المغرب وعلى رأسهم محمد خير الدين التونسي، مبعوث جمعية "الاتحاد والترقي بتركيا"، أثناء إقامته بمراكش.[3] وعبد الكريم بن السيد عمر بن مصطفى بن الشيخ مراد السوري، مبعوث الشرق إلى المغرب، فأقام بالزاوية الكتانية، وعقد مجالس علمية بها.[4]

وبعد سنوات من الجد والتحصيل نبغ الشاب محمد بن عبد الكبير في فنون شتى، أهمها: التفسير، والحديث، والأصول، والكلام، والفقه، والتاريخ، والسيرة، والأنساب، واللغة، والمعاني والبيان، والحكمة، والمنطق، والتصوف والسلوك...[5] فلما آنس من نفسه المقدرة على نشر العلم، اتخذ الزاوية الكتانية منطلقا له، حيث درّس التفسير بها وسنه ثمان عشرة سنة[6]. وكذلك "شمائل" الترمذي **"ابتدأ دراستها بالزاوية الكتانية الفاسية، ونظرا للإقبال الحاصل**

---

[1] السملالي، العباس بن إبراهيم، "الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام"، الرباط، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1433/ 1993، ج7 ص 156// الكتاني، محمد الباقر، " ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد المسماة: أشرف الأماني"، تحقيق نور الهدى عبد الرحمن الكتاني، بيروت- دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1426/ 2005، بتصرف من ص 72- 73،

[2] " الإعلام" ج7 ص 156// " أشرف الأماني"، ص 78

[3] المنوني، محمد، "مظاهر يقظة المغرب الحديث" طبع بالاشتراك: بيروت، دار الغرب الإسلامي- الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع المدارس، الطبعة الأولى، 1405/ 1985م، ج2 ص 309

[4] "مظاهر يقظة المغرب"، ج2 ص311

[5] "أشرف الأماني"، ص76

[6] "أشرف الأماني" ص 97

عليها من جمهور الشعب الفاسي حتى ضاقت رحاب الزاوية بالحاضرين، انتقل إلى جامعة القرويين لمواصلة دروسه بها".[1] و كان يدرس مقدمة ابن آجروم بالزاوية الكتانية زوال كل يوم، كما درس "المرشد المعين" لابن عاشر، و "همزية" البوصيري.

أقرأ **"صحيح البخاري، فتحه بالزاوية الكتانية بفاس بين العشاءين وهو ابن إحدى وعشرين سنة"**[2]، كما درس "جامع" الترمذي، و"سنن" النسائي، و"الترغيب والترهيب" للمنذري، و"الشفا" للقاضي عياض، و"الخصائص الكبرى" للسيوطي، و"الفتوحات" لابن عربي الحاتمي، و"الإحياء" للغزالي، و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي...[3]

تتلمذ عليه من المغاربة: أحمد بن جعفر الكتاني، أحمد بن الطيب الجاوزي، أحمد بن محمد بن الحسن بناني، أحمد بن محمد الزعيمي الرباطي، أحمد بن جلون الفاسي، أحمد بن عبد الكريم الحداد، أحمد برادة الفاسي، محمد المكي بن محمد البطاوري، محمد بن علي اليوسي...

ومن الأجانب: أحمد البستيوني المصري، أحمد الحملاوي المصري، أحمد بن علي الحجازي، أحمد بن أبي القاسم الهذلي، خير الدين التونسي، محمد حسنين العدوي المصري، ومحمود التركي مفتي الجيش العثماني، وغيرهم كثير من داخل المغرب وخارجه.[4]

تابع أهم ما ينشر في العالم الإسلامي سواء كتبا أو جرائد، إلى جانب مساهمته بالكتابة في بعضها، كجريدة "المؤيد المصرية"، و"الحاضرة التونسية".[5]

ساهم في إغناء المكتبة الإسلامية بمؤلفات، منها[6]:

- "الأمالي في علم الأمهات"، طبعت ضمن "النفائس الكتانية" من رسائل الإمام محمد ابن عبد الكبير الكتاني في الآداب والسلوك، من ص 281 إلى ص 317، بتحقيق حمزة بن علي الكتاني.

---

[1] "أشرف الأماني"، ص 282
[2] "أشرف الأماني"، ص 285
[3] "أشرف الأماني"، ص 288
[4] "أشرف الأماني"، ص 302- 322
[5] "مظاهر يقظة المغرب"، ج2 ص 330
[6] "الإعلام"، ج7 ص 156

- "الحكم الإلهية" خلاصة تجربة الشيخ مع فن الحكم كمنهج تربوي سلوكي لكل من أراد التصوف، وهو من تحقيق محمد البرسيجي، طبع بمصر، عن دار الكرز للنشر والتوزيع، 2013.

- " لسان الحجة البرهانية في الذب عن شعائر الطريقة الأحمدية الكتانية"، كتاب في الدفاع عن التصوف، ردا على العلماء الذين عارضوه. طبع بفاس سنة 1314هـ، وطبع بتحقيق عدنان زهار عن دار الكتب العلمية.

- " نظم المتناثر من الحديث المتناثر"، كتاب جمع فيه المؤلف حوالي 310 حديثا مرتب حسب الموضوع، مع الإشارة إلى كون الحديث في "الأزهار المتناثرة" للسيوطي أو إلى من عزاه إليه، مع إضافته الطرق الأخرى التي وقف عليها. طبعته دار الكتب العلمية سنة 1987.

- "يواقيت التاج الوهاج في قصة الإسراء والمعراج"، كتاب في معجزة الإسراء والمعراج، مع التعريف بسيرة سيد الخلق وذكر معجزاته وأعلام نبوته، طبع سنة 2009.

- "القول الشافي، والبيان الكافي، في أن فاعل القبض في الفريضة غير جافي"، طبع بتحقيق عدنان زهار، بدار الكتب العلمية، سنة2011م.

شكلت هذه الروافد لشخصيته غناء وتميزا، أذاع صيته، ونشر في الآفاق ذكره، وعدد تحليته، حيث أثنى عليه عبد الحفيظ الفاسي، فقال :**"عالم متبحر، حافظ من حفاظ الحديث، بصير بمعانيه وفقهه، متمكن في علم التفسير والأصلين والكلام، متبحر في التصوف غواص على دقائقه...قدير على فك المشكلات وفض المعضلات، مثابر على نشر العلم، دؤوب على تقريره وتدريسه...حر الفكر والضمير، يجاهر بأفكاره ومبادئه ومؤلفاته ودروسه، مقتدر على إقامة الحجة، وإقناع الخصم والاستيلاء على أفكاره بما أوتي من قوة العارضة، والقدرة على**

البيان، والبراعة في الاستدلال... لم يبلغ أحد من أهل عصره بعد الشيخ ماء العينين مبلغه في إقبال الخلق وبعد الصيت، وشهرة الذكر في المشرق والمغرب"[1].

وقال عنه ابن سودة: **"علم من الأعلام، المربي الكبير، والحافظ الشهير"**[2]

قال عنه المنوني: **"يعتبر داعية للسلفية الأولى، كمصلح إسلامي بالمغرب، وعلى مستوى العالم الإسلامي"**،[3] ذكره ضمن الشخصيات المجددة في القرن 19.[4]

وقال عنه بنعبد الله :"**عالم جليل، ووطني كبير، نافح عن المملكة قبيل الحماية، فدس ضده الفرنسيون لدى المولى عبد الحفيظ فقتله".**[5]

المطلب الثاني: مشروعه الإصلاحي

عاش العلامة محمد بن عبد الكبير الكتاني في مجتمع سادت فيه كثير من المشاكل، منها ما هو راجع للظروف السياسية الناتجة عن تربص القوى الأجنبية بالبلد. ومنها ما هو راجع للبعد عن الدين، والانحراف عن الطريق المستقيم. فاستطاع بفضل مكانته العلمية، وطموحه القوي للتغيير، ورغبته في رؤية بلده في مصاف البلدان المتقدمة التي نالت استقلالها وارتقت خطى التقدم والحضارة، أن يساهم في حل المشاكل المطروحة حسب أولوياتها، فاشتغل على عدة جبهات، إذ لم تكن تطلعاته الإصلاحية قاصرة على جبهة دون أخرى.

هكذا ارتقى سلم الإصلاح خطوة خطوة، فشكلت خطواته تلك أسس مشروع إصلاحي محدد الأهداف والغايات، استمد مبادئه من الوحيين كتابا وسنة، ومن سيرة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، رغبة في تحقيق مجتمع يسوده العلم والعدل والكرامة؛ لإيمانه بأن ذلك مقدمة باقي الإصلاحات. لذا بناه على أربعة أركان: جمعت بين الدين، والعلم، والاقتصاد والسياسة،

---

[1] الفاسي، عبد الحفيظ " معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب"، تحقيق عبد المجيد خيالي، منشورات علي بيضون، بيروت، دار الكتب العلمية، ج1 ص 40 رقم 12

[2] ابن سودة، عبد السلام بن عبد القادر، "إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع 1171-1400هـ/ 1756-1980م"، تحقيق محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1417هـ/ 1997م، ج1 ص 381

[3] "مظاهر يقظة المغرب"، ج2 ص 375

[4] المنوني، محمد "شخصيات مجددة في مغرب القرن 19"، مساهمة في ندوة "تجديد الفكر الإسلامي" من تنظيم مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية، الدار البيضاء، 1407هـ، الطبعة الأولى، 1410هـ.

[5] بنعبد الله عبد العزيز، "معلمة التصوف الإسلامي"، دار نشر المعرفة، الطبعة الأولى 2001، ج2 ص 280

لاتصال كل منهما بالآخر. ولكون أساسيات الإصلاح السياسي تبدأ بالإصلاح الديني والعلمي. فماهي بوادر هذا المشروع الإصلاحي؟ ماهي أهم جوانبه؟ وماهي آثار ه؟

1- إصلاحه في الجانب الديني

ركز محمد بن عبد الكبير الكتاني بداية عنايته على الجانب العقدي، نظرا لبعد الناس عن الدين، وانحراف العقيدة، فجعل أولى خطواته الإصلاحية تعنى بعلم التوحيد، بدءا من الزاوية الأم، ثم**"في الاجتماعات العمومية والخصوصية بفاس وغيرها من مدن المغرب التي زارها"**،[1] حيث سافر لمدن وبوادي عديدة قصد الدعوة إلى الله، بتجديد الإيمان، والتذكير بضرورة التوبة من كثير من المعاصي، وتعليم تعاليم الإسلام الصحيحة، في حوالي مائة زاوية بالحواضر والبوادي، أسسها للقيام بشعائر الدين، وإحياء سنن سيد المرسلين، فأصبحت زواياه بمثابة معاهد للتعليم والعبادة.[2]

كتب أجوبة عما أشكل في القرآن في جانب التوحيد، ورسائل ذكر فيها عقائد الأشاعرة الستة والستين والتي هي أصول الدين، بأسلوب سهل مبسط يفهمه العوام، وأوكل بها مقدمي الزاوية الكتانية في كل فروعها كي يعلموها الناس.[3] وأوصى العلماء بعدم الكلام في غوامض العلوم في مجالس العوام خشية فتنتهم. كما حذرهم من إنشاد أشعار الحقيقة بحضورهم، مخافة التشبيه والتجسيم، بحمل النصوص على ظواهرها، **"وإياكم والكلام في الحقائق وغوامض العلوم، ومتشابه التوحيد، وما يشوش الأفكار"**[4].

2- إصلاحه في الجانب المجتمعي

حرص العلامة الكتاني على نشر العلم بين الناس في ظل ارتفاع نسبة الأمية وهشاشة نظام التعليم التقليدي وضعفه، فأكثر من وصاياه لأتباعه: فالجاهل عليه التعلم، والعالم عليه نشر

---

[1] " أشرف الأماني، ص 17
[2] "أشرف الأماني" ص 88
[3] "أشرف الأماني"، ص102
[4] "أشرف الأماني"، ص120-121

العلم[1]. كما حرص على الارتقاء بالأخلاق والسلوك، فداوم على اختيار ما يعين على ذلك، سواء من المصادر أو الشيوخ ممن سيقرئون الناس ما اختار من الكتب، ومن ذلك مثلا وصيته بالمداومة على قراءة ابن السبكي، والإحياء للغزالي[2].

اعتنى ببعض العلوم التي اندرست في عصره وعلى رأسها علم الحديث، الذي أصبح غريبا بين أهله[3]، وعد عدم العمل على كتب الحديث في باب التأديب والتهذيب، والأخلاق والمعاشرة، والرقائق والآداب من أسباب انحطاط الإسلام [4].

دعى إلى تعليم المرأة منبها للموانع التي تشغلها عن ذلك: "**وكان ينبغي أن يجعل الولاة للنساء فقهاء أولياء، يؤمنون على النفوس والأعراض والعورات، ويقومون بتعليم النسوة. فالمرأة لا تحضر مجالس التعليم والتأديب، والولاة لا يلتفتون لذلك، والزوج لا يعتني بما يصلح... فمن يعلمها؟**"[5]. ومن تعلمت شجعها وقدمها على أخواتها لتعلمهن.

داوم على تذكير العلماء بدورهم المتمثل في تعليم الجاهل، وتبصير الضال، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترفع عن تحقيق المصالح الشخصية، فقال: **عليكم" أن تتجردوا كلكم عن الأحوال الشخصية والأغراض الطبيعية، وتتحركوا حركة إيمانية، ونهضة روحانية، وتكونوا في الحق سواء**"[6].

بذل جهودا كثيرة لعلاج داء الفرقة والاختلاف، حيث عمل كل ما في استطاعته لنشر بنود الأمن في مختلف جهات البادية المغربية، حتى أصبح زعماء البادية رجال سلام، استعدادا لمعركة الدفاع عن البلاد المهددة، وبذل جهدا كبيرا في عقد أواصر الأخوة بين مختلف القبائل[7].

[1] "أشرف الأماني"، 102- 103
[2] "أشرف الأماني"، ص 104
[3] " أشرف الأماني ص 98
[4] "أشرف الأماني"، ص112
[5] "أشرف الأماني"، ص 121
[6] "أشرف الأماني "، ص106
[7] "أشرف الأماني"، ص 226

حرص على أن يكون لعلماء الإسلام صوت مسموع من خلال الوسائل التي استجدت في عصرهم، فحثهم على الكتابة في الجرائد والمجلات منافحة عن الإسلام والمسلمين، فالفكرة لا ترد إلا بالفكرة في إطار حرب الأقلام[1].

أصدر جريدة "الطاعون" بفاس لرد الهجوم الفكري الغربي، ودعم جريدة "لسان المغرب"، بطنجة وهي أول جريدة وطنية مغربية.

نبه إلى خطورة الحمايات، معتبرا الاحتماء بالأجنبي ومصادقته، جرحة في الدين.[2] ولم يكتف بهذا البيان، بل كان له موقف أكثر صلابة لوقف هذه المعضلة حينما اتفق مع علماء فاس بجعل تطهير المغرب من دنس الحمايات أحد شروط البيعة الحفيظية.

دعى إلى العناية بالكفاءة في أي مجال، وعدم إهمال من نبغ في أي فن سواء كان علما، أو صناعة أو موهبة، إذ لم يكن صدر الإسلام كذلك [3]. إذ بإهمال الكفاءات تعجز الأمة عن اللحاق بركب الحضارة السائر دون توقف.

3- في الجانب الاقتصادي:

رفض البضائع الأجنبية، وعلى رأسها الشاي والسكر، بسبب ما يجنيه المستعمر من أرباح تكتسح أموال المغاربة، سعيا في اختلال أنظمة الجهاز الاقتصادي المغربي. لذا منع أتباعه من شرب الشاي لاعتباره ذلك مقدمة الاحتلال، وطلب توجيه ثمن ذلك لشراء السلاح[4]. وفي المقابل، طالب باستهلاك المنتوجات المغربية، حماية للحرفيين من الفقر والفاقة.

لكن بالرغم من كل ما قام به، ونبه إليه لصالح مجتمعه، عارضه بعض علماء فاس واتهموه بسوء الاعتقاد وبطلبه الملك[5]. فسافر الكتاني إلى مراكش سنة 1896م قصد تبرئة نفسه من

---

[1] أشرف الأماني"، ص114
[2] "أشرف الأماني"، ص 108
[3] "أشرف الأماني"، ص 111
[4] "أشرف الأماني" ص 195
[5] "الإعلام، ج7 ص 157

المنسوب إليه، فعقد السلطان مناظرات بينه وبين العلماء استمرت أشهرا، انتهت بتبرئته، واحتفاء السلطان به، وطلب بقائه مدة، وبعدها وجهه إلى فاس معززا مكرما[1].

4- أفكاره الإصلاحية في الجانب السياسي

قام الكتاني بعدة إصلاحات بطلب من السلطة وتفويض منها أحيانا، خاصة بعدما اختاره السلطان مستشارا خاصا له، عقب لقائهما في ضريح إدريس زرهون، وتعاهدهما على التعاون على ما فيه خير الإسلام والمغرب[2]. فوفى العلامة للسلطان بما عاهده عليه في أول محنة عرفها المغرب والسلطان بفاس، وهي محنة "بوحمارة" سنة 1902م، حيث دعى أتباعه بزمور للمشاركة في حربه، فشكلوا بذلك فئة مهمة من المحلة العزيزية التي خرجت لمقاومة الدعي. وأصدر مع جماعة من العلماء[3] بيانا حول موقف الإسلام من بوحمارة[4]. وحاول جاهدا أن يصل البيان إلى كل المتنورين من أتباعه، وأمرهم أن يشرحوه ويبينوا أدلته للناس حتى يحذروا الفتان.[5] وعمل بأمر من السلطان[6] على إقناع المحلة السلطانية المتولية عن مواجهته، فنجح في ذلك[7].

سافر الكتاني للحج إبان الفتنة، وهو موقن بأنها مفتعلة بتحريض المستعمر لنشر الفوضى[8]. لذا حرص وهو في رحلته، لقاء عدد من الشخصيات الثقافية والسياسية، للاطلاع على أخطار الأطماع الاستعمارية المحدقة بالعالم الإسلامي، ف**"شكل حج الشيخ الكتاني سنة 1903 نقطة مهمة في حياته السياسية، حيث احتك في القاهرة والمدينة بأقطاب الجامعة الإسلامية"[9].** فكانت رحلته إلى الحج حدثا فاصلا في حياته، حيث سافر وهو حريص أشد الحرص على

---

[1] "الإعلام" ج7 ص 157
[2] "أشرف الأماني"، ص 336
[3] ينظر أسماء العلماء في "أشرف الأماني"، ص 342- 343
[4] "أشرف الأماني"، ص 336
[5] "أشرف الأماني"، ص 341 بتصرف
[6] ينظر رسائل وزراء السلطان له بذلك "أشرف الأماني"، ص 347- 348-349
[7] "أشرف الأماني" ص 344 بتصرف
[8] "أشرف الأماني"، ص 343
[9] التمسماني عبد العزيز خلوق، "المقاومة المغربية الدبلوماسية للهيمنة الفرنسية (1904- 1905) "، مجلة دار النيابة، السنة الخامسة - العدد 17 شتاء 1988.

التغيير والإصلاح عموما، ليعود وهو أشد حرصا على الإصلاح السياسي بالذات، مؤسسا بذلك محطات نضالية جديدة في مصاره الدعوي.

أولها: معارضته السياسة الفرنسية في المغرب

بعدما قررت فرنسا فرض إصلاحات على المخزن المغربي، واطلاع الكتاني على الأمر، **''قابل السلطان ووزراءه شارحا لهم حقائق الأشياء، ومبينا الأخطار المحدقة بالمغرب من جراء ذلك''**[1]. مع تأكيده على رفض الاستعانة بالكفار، أسوة بخلفاء الإسلام.[2] ليقينه بأن ذلك مصيدة فقط، إذ لا يستقيم في نظره طلب الإصلاح ممن يهدد أمن البلد؟ بل للإصلاح ضوابط يجب أن تحفظ للوطن هيبته، وللسلطان مكانته، وأهمها: تحقيق قوة دفاعية بإحداث جيش مغربي، عن طريق فرض التجنيد الإجباري على الشعب، مع اقتراحه أن يكون وأتباعه من الطريقة الكتانية على رأس المنخرطين[3]. إلى جانب إصراره على جلب خبراء عسكريين من البلاد الإسلامية المستقلة كالدولة العثمانية، لتدريب الجيش، وتنظيمه، وتسليحه بأجهزة متطورة، تمكنه من منافسة الجيوش الأوربية.[4]

ولما أقدم الجيش الفرنسي على احتلال مناطق على الحدود المغربية الجزائرية بحجة تبعيتها للجزائر. قام العلامة لهذا الحادث وقعد" **وعده فاتحة الشر على المغرب. وقابل السلطان مرات وشرح له الوضعية الحقيقية للحدود''**[5]. إلا أن هذه اللقاءات لم تكن تمر دون اعتراض السلطة الاستعمارية لقلب الكفة لصالحها بتبخيس أفكار العلامة وتسفيهها، بزعمها أنه ليس من أهل الاختصاص، فللسياسة أهلها، والعلامة الكتاني ليس كذلك، فلو كان من أرباب هذا الفن، ومن رجال العلم المطلعين على أحوال العالم السياسي، فعاين من السلطان والوزراء ما ينافي المصلحة الوطنية في هذه القضية، لا ريب كان له الحق في خوضه في هذا الأمر، لكن حيث

---

[1] "أشرف الأماني "، ص 350
[2] "مظاهر يقظة المغرب، ملحق 50، ج2 ص 230
[3] بدأ التداريب مع مجموعة من أتباعه. روجي لوطورنو، "فاس قبل الحماية"، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1406/ 1986، ج1ص 370.
[4] " أشرف الأماني"، ص 371
[5] "أشرف الأماني"، ص 352

لم يترو في النازلة ولم يقبل ما أشير به عليه، فالفرنسيون أول المخطئين له، المصوبين نحوه سهام الانتقاد.[1] وكيف لا يخطئوه وكل أفكاره الإصلاحية تعاكس مشروعهم الاستعماري؟

ثانيها: معارضته لمقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء

عقب سماع العلامة بخبر انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء، قابل السلطان لتبليغه بعدة مقترحات، أولها: ضرورة انعقاد المؤتمر بفاس

ثانيها: أن يكون ممثلو المغرب من ذوي الغيرة الدينية والوطنية، والكفاءة في ميدان السياسة والمعرفة، مع اقتراحه لأسماء بعض الشخصيات. لكن ذهبت اقتراحاته سدا، وعقد المؤتمر بالجزيرة الخضراء سنة 1906/1324م، بحضور أعضاء لم يكن راضيا عن أغلبهم، فانتهى المؤتمر بتأكيد حق التدخل في شؤون المغرب للدول المجتمعة فيه.[2] وبالرغم مما أسفر عنه من مقررات كلها ضد السيادة الوطنية، لم ييأس العلامة من نصيحة السلطان وفاء لوظيفة المستشار التي عاهده عليها**." فقابل الجناب العزيزي، طالبا منه عدم الموافقة عليها"**[3]**.** لكن دون جدوى.

ثالثها: دعوته للجهاد ضد الاستعمار الفرنسي

شكل احتلال فرنسا للدار البيضاء و وجدة سنة 1907م، سببا رئيسا لانتقال العلامة من دور المستشار إلى دور المعارض، خاصة بعدما أمر السلطان بعقد اجتماع مع العلماء ليسمعوا شرح وزير الخارجية عن الأحداث، فانعقد الاجتماع بدار المخزن، وكان الكتاني على رأس الوفد الفاسي[4] لسماع التقرير الذي ختمه الوزير بقوله: **"وهذا الاحتلال هو عبارة عن قوة عند الضعف، لردع العرب عن خراب المدينة، ولأجل المساعدة على تشكيل البوليس، وقد اقتضى**

[1] جريدة السعادة، الاثنين 27 محرم 1323/ 13أبريل 1905.
[2] "أشرف الأماني"، ص 355 بتصرف
[3] "أشرف الأماني"، 356
[4] " مظاهر يقظة المغرب"، ج2 ص 342

نظر الحضرة الشريفة أن نبلغكم ذلك لتطلعوا الأمة عليه وتطمئنوا الأفكار إليه"[1]. رغبة في سماع موقف العلماء من الأزمة، **"قاطعه الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، وجاهر بالدعوة إلى الجهاد لاستنقاذ البلدتين من الاحتلال"[2].** وانتهى الاجتماع بدون فائدة تذكر، وخاب أمل كل الغيورين[3]، وتيقن العلامة الكتاني بأن القادم أسوء، وبأن وظيفة الشورى أصبحت متجاوزة، ووجب الانتقال إلى معارضة السياسة العزيزية، **"لما رأى أن الحكومة لم تجند الجنود، ولم تخض المعركة الكبرى للدفاع عن المغرب"[4].**

نادى الكتاني بانعقاد مؤتمر وطني، من أجل: اتخاذ مجلس للشورى - وبذل كل الجهود في سبيل الحصول على الأسلحة - وإقناع الجميع بمقاطعة البضائع الأجنبية - وبضرورة بيع ما في منازلهم من كماليات أجنبية، والمساهمة بثمنها في تمويل الحركة التحريرية.[5]

كاتب أتباعه بالشاوية يدعوهم إلى الجهاد، فلبوا دعوته، وخاضوا حربا ضد الجيش الفرنسي، دامت خمس سنوات، استمر فيها على تشجيعهم ودعمهم بسبب إحيائهم لفريضة الرباط في سبيل الله، فكان لهم منه الثناء الحسن، والذكر الجميل[6]. كما لم يأل جهدا في دعوة عموم المسلمين إلى تلبية نداء الجهاد، مع تأنيبهم على عدم نصرة إخوانهم المجاهدين في منطقة الشاوية، وعدم مساعدتهم ماديا ومعنويا[7].

رابعها: صياغته لشروط ألحقت بالبيعة الحفيظية

لما تقاعست الحكومة العزيزية عن مواجهة الاحتلال الفرنسي لمدينة البيضاء و وجدة، وتركته يكمل توغله في منطقة الشاوية دون أي رادع، أعلن المولى عبد الحفيظ خليفة مراكش استعداده للدفاع عن البلاد. فما كان من أهل مراكش إلا أن خلعوا المولى عبد العزيز وبايعوه. لكن تأخرت بيعة أهل فاس أربعة أشهر، حيث أخذ العلامة الكتاني على عاتقه تقديم مصلحة البلد

---

[1] "أشرف الأماني، ص 358
[2] "مظاهر يقظة المغرب"، ج2 ص342
[3] ينظر عرائض أهل فاس ضد السياسة العزيزية، "مظاهر يقظة المغرب"، ج2 ص 344- 348
[4] "أشرف الأماني"، ص 359
[5] " مظاهر يقظة المغرب" ج2 ص 360
[6] "أشرف الأماني"، ص 358// "مظاهر يقظة المغرب"، ج2 ص 506
[7] "أشرف الأماني"، ص 369

على كل مصلحة، فاستشار مع العلماء وعقدوا مؤتمرا، حضره نواب مختلف الشرائح المجتمعية لأهل فاس وغيرها. فخطب الكتاني، وأعلن أنه لا فائدة ترجى من هذا الانقلاب، إذا لم تكن البيعة الجديدة مقيدة بشروط[1]. ثم تلا عليهم نص الشروط التي كان قد حضرها من قبل، فوافقوا عليها، فألحقت بنص البيعة ووقعها الجميع[2]. فتم خلع الجناب العزيزي وتولية الجناب الحفيظي يوم 23 ذي القعدة 1325هـ/1908[3]. وتمت البيعة المشروطة بمبادرة من العلامة الكتاني و بإقرار الجميع[4]. وفي رواية أنها من إنشاء أحمد ابن المواز.[5] وهو ما نفاه محمد بن عبد الباقر الكتاني وآخرون[6]، مؤكدين أن الشروط من إنشاء الكتاني ورضى الجميع، لإلزام السلطان بتجديد معالم الدين، والحفاظ على استقلال المغرب، وتحرير ما ضاع من أراضيه، مع استشارة الأمة في جليل الأمر وصغيره، ورفض مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء...[7] اعتبر علال الفاسي هذه الشروط: **"ميثاقا قوميا ودستوريا من الطراز الأول...وعقدا بين الملك والشعب يخرج بنظام الحكم من الملكية المطلقة إلى ملكية دستورية"[8].**

وقال محمد حسن الوزاني:**" ويقوم نص البيعة دليلا قاطعا على ما كان يتمتع به المغاربة عامة، والنخبة الناطقة باسمهم خاصة، من شعور وطني، ووعي سياسي، ومستوى معنوي، وتحفز شعبي، وتصميم دفاعي عن الكيان المهدد بشر الأخطار في الداخل ومن الخارج."[9]**

كان على رأس هذه الأخطار التدهور الاقتصادي الكبير، والفتن والثورات، والضغوط الاستعمارية من الخارج، ومعارضة المعزول في الداخل، الأمر الذي استدعى تدخل الكتاني، الرأس المدبر للبيعة المشروطة ليعبر عن حسن نيته. فلم يأل جهدا في استتباب الأمن للسلطان الجديد. فعمل إبان المرحلة الانتقالية بجد، **"وسهر على راحة السكان سهرا كبيرا[10].** ووجه بمعية كبار العلماء رسائل بالموضوع إلى ممثلي الدول الأجنبية بطنجة، يخبرهم بما وقع،

---

[1] الشروط في "مظاهر يقظة المغرب ج2 ص 344// "أشرف الأماني"، ص 390- 391

[2] "أشرف الأماني"، ص 389

[3] "أشرف الأماني"، 382- 383

[4] "مظاهر يقظة المغرب"، ج2 ص343

[5] " إتحاف أعلام الناس"، ج1 ص 520

[6] "أشرف الأماني، ص 391

[7] كتب محمد بن عبد الكبير الكتاني رسالة إلى السلطان عبد الحفيظ تطلعه على موقف الشعب المغربي من مقررات المؤتمر وتنبهه بأنه عليه استشارة شعبه في أحقر أمور البلد فضلا عن المسائل العويصة والجبال الرواسي من المشكلات... فإن الشعب يعلن بكلمة واحدة أن المؤتمر لا ينفذ لما فيه من هضم حقوق المغرب والمغاربة..." مجلة دار النيابة"، السنة الثانية، العدد 7- 1985/ السنة الخامسة العدد 17 شتاء 1988.

[8] الفاسي علال" الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"، مراكش، لجنة الثقافة الوطنية لحزب الاستقلال، ص96

[9] الوزاني، محمد حسن" مذكرات حياة وجهاد- 1"، مؤسسة محمد حسن الوزاني، دار الغرب الإسلامي- بيروت، دون تاريخ الطبع. ص 35

[10] "أشرف الأماني" ص 395

ويطلب من دولهم الحياد[1]. كما كاتبوا أعيان تطوان يطلعونهم على عزل المولى عبد العزيز وتولية المولى عبد الحفيظ لحثهم على البيعة[2]. ولمزيد الحيطة والحذر حرصا على مصلحة الوطن، راسلوا ممثل أمريكا بطنجة، يطلعونه على مجريات الأحداث مع طلب الحياد، لأن **"الأمة المغربية تعد اقتراض مولاي عبد العزيز اقتراضا شخصيا، لا تطالب الأمة به بوجه"[3].** كان هذا التوضيح ضروريا لكون المولى عبد العزيز بادر لمحاربة أخيه، وكاد ينجح في مسعاه بسبب الدعاية التي قام بها الموالون له، **"وقاربت التأثير على قبيلتي زمور وزعير، ويرجعوا لبيعة الجناب العزيزي، فخرج المترجم من فاس بإجماع أهل الحل والعقد، قاصدا مكناسة الزيتون ليعمل كل ما في وسعه لتثبيت البربر، ويضمن نجاح الانقلاب"[4].** فعقد مؤتمرا وحدويا[5] يوم12 صفر 1908/1326م، حضره رجال الحل والعقد وأعيان كل قبيلة بمكناس، وتادلا، والصحراء، **"اتفق فيه المؤتمرون على ما يأتي: عقد صلح بين القبائل البربرية- إلغاء عادة المطالبة بالدم التي كانت تحول دون الصلح- التفاني خلف الائتلاف والاتحاد- الاعتصام بحبل الله المتين- التشبث بالدعوة الحفيظية"[6].** وبفضل هذه الجهود استتب الأمن، وتمكن المولى عبد الحفيظ دخول مكناس، بعد أن كان توقف "بمشرع الشعير"، بسبب معارضة الموالين لأخيه.

إلا أن هذه المجهودات في سبيل الإصلاح، لم ترق المستعمر وأذنابه؛ مما جعلهم يجتهدون في زرع النفور والفرقة بينه وبين الجناب الحفيظي، سعيا للنجاح في مشروعهم الاستعماري بإحباط الإصلاحات المشروطة. وهو ما لمسه العلامة في أول لقاء له مع السلطان الجديد، حيث **"لا حظ بمزيد التأثر أن أفكاره تبدلت بمشرع الشعير، وأصبح يعلق تنفيذ البرنامج الإصلاحي الذي بايعته الأمة من أجله على اعتراف الدول الأجنبية به ملكا على المغرب"[7].** بذل الكتاني وسعه في إقناعه بالعدول عما أقنعه به المغرضون، لكن فشل في مسعاه. وازداد الأمر نفورا بينهما بطلب السلطان الذهاب لقتال جيش أخيه السلطان مولاي عبد العزيز،

---

[1] "أشرف الأماني"، ص 396
[2] "أشرف الأماني"، ص 397
[3] مقتطف من الرسالة "أشرف الأماني"، ص399
[4] أشرف الأماني، ص 402
[5] مظاهر يقظة المغرب ج2 ص 367
[6] مظاهر يقظة المغرب ج2 ص 363// جريدة "لسان المغرب"، العدد 31، الجمعة 1 ربيع الأول/ 3 أبريل 1908.
[7] "أشرف الأماني" ص 411

ورفض العلامة ذلك، بحجة أنه ما خرج لقتال المسلمين، وإنما خرج لإخراج الأجانب من البلاد[1]، فكان هذا الرد بمثابة الشرارة التي أججت غضب السلطان عليه، فلم ينجح في أي طلب بعد ذلك. لتكون شروط البيعة الحلقة الأولى في سلسلة عدم التفاهم بينهما[2]، وبعدها امتناعه عن قتال المولى عبد العزيز، ورفضه إلقاء السلطان القبض على أنصار أخيه ومصادرة أموالهم.[3] كل هذه العقبات وهما لا زالا في مكناس. تلتها عقبات أخرى في مدينة فاس باستمرار العلامة في مقابلته طلبا لتنفيد الشروط التي اشترطتها عليه الأمة في عقد بيعته[4]. وفي مقابلته في مجالس حديثية للعلماء كان يعقدها السلطان بالقصر، فيقرر آراء في الدين تخالف كتاب الله وسنة رسوله، وجمهور المسلمين. فيناقشه العلامة مناقشة حادة، مبينا له الصواب في كل ذلك[5]. فكانت هذه عقبة أخرى في سلسلة العقبات بينهما، أقنعت الشيخ الكتاني بمواصلة الدعوة إلى الجهاد ضد فرنسا التي كانت تتوغل في البلاد بخطى ثابتة، رغبة في مواصلة الاحتلال العسكري في الشاوية، والنشاط السياسي في فاس، تمهيدا لفرض الحماية على المغرب. فأصبح التقارب بين الرجلين مستحيلا، والتفاهم عسيرا لتشبث كل منهما برأيه. فقرر الكتاني في ظل هذا الوضع الابتعاد عن السلطان وإنهاء علاقته به، ومغادرة فاس إلى قبيلة "أيت يوسي" بجبال الأطلس[6]، فخرج رفقة عائلته، في منتصف نونبر 1908 مرورا ببني مطير. حيث لحقه رجال السلطان وأعادوه إلى القصر، فجلد حتى استشهد.

وفي خروجه أقوال: أن خروجه كان رغبة في الانعزال والتفرغ للعبادة والدعوة[7].

أن الخروج كان خوفا على نفسه بعد إشاعة حاشية السلطان أنه يريد قتله، فخرج فارا بنفسه.[8] أن قتله كان بتحريض من المستعمر بنشره مقولة أن الكتاني يسعى للإطاحة بالسلطان، ليدير سياسة الدولة بنفسه."[9]

---

[1] "أشرف الأماني"، 411

[2] "الإعلام"، ج7 ص 158

[3] "أشرف الأماني"، ص412

[4] أشرف الأماني ص 414

[5] أشرف الأماني ص 417

[6] "أشرف الأماني"، ص 419

[7] "أشرف الأماني"، ص 419

[8] بوعياد، العربي بن العربي "نسيم وادي العقيق في مناقب شيخنا سيدي محمد بن الصديق " تحقيق التجكاني بشرى، أطروحة الدكتوراه، السنة الجامعية 1432 - 1433هـ/ 2011- 2012م، ج1 ص 124.

[9] حركات، إبراهيم "تاريخ المغرب"، ج 3، الطبعة الثانية 1415هـ/1994، دار الرشاد الحديثة، ص 340.

وبخروجه ذابت اللحمة بين السلطتين السياسية والعلمية، وفشلت النخبة الفاسية في تحقيق المطالب الإصلاحية.

خاتمة

يجد الإنسان نفسه مع العلامة الكتاني أمام سيرة حافلة، انطلقت من بيت شرف وعلم، يرثونه كابرا عن كابر. ومن مراكز علم احتضنته لسنوات، فأظهر فيها عن مدى صبره وحرصه على التعلم. انصقلت شخصيته مع السنين بالعمل الجاد المتواصل، والطموح اللا محدود في تبليغ ما تعلم، بعدما نذر نفسه لنشر العلم في البوادي والحواضر، وسافر من أجل ذلك مرات عديدة، فاستطاع تصحيح الانحرافات العقدية، وتوحيد الصفوف، تمهيدا لتلبية نداء الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي.

وما زاد سيرته شرفا وميزة، تجاربه في مجال الدعوة والنضال من أجل التغيير، واحتكاكه بأعلام الدعوة والإصلاح من شتى البقاع، خاصة أثناء رحلته إلى الحج، إلى جانب حرصه على ملاقاة من دخل المغرب منهم، ومجالستهم والاستفادة من علومهم وأفكارهم، هذا إلى جانب متابعته لما ينشر في المشرق أولا بأول.

فكانت لقاءاته تلك، ومتابعته لما استجد من أخبار في مجال الثقافة والدعوة، مع الحرص على استحضار التجربة النبوية، والخلافة الراشدة في سياسة البلاد. من أهم الروافد التي أنضجت اهتماماته بالسياسة، وغذت شخصيته في مجال الدعوة للإصلاح السياسي، مما أهله للقيام بأول مشروع إصلاحي حظي بثقة النخبة المثقفة بفاس والمغرب عموما، من خلال مقترح البيعة المشروطة، التي كان كل بند من بنودها، يشكل انتصارا وحده لو تحقق، كبند رفض مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء. وبند الحفاظ على استقلال البلاد باسترجاع ما ضاع منه والدفاع عما بقي. وبند رفض الاستعانة بالأجانب، دون رفض الاستعانة بخبرات البلدان الإسلامية المستقلة. وأهم بند هو ضرورة استشارة الشعب في قليل أو كثير، لتكون الأمة هي مصدر السلطة، وهو ما سماه المؤرخون بالدعوة المبكرة للملكية الدستورية. هذه الدعوة التي أحدثت حراكا ثقافيا وفكريا نتيجة مدارستها ومناقشتها فيما بعد، مواكبة للحراك الفكري الدائر في الساحة العربية والإسلامية، رغبة في العودة إلى المنابع الصافية للتجربة الحضارية للقرون

الأولى، بعدما تأخر المسلمون في كل شيء، وتدهورت حالتهم وانتشرت البدع بينهم، فطغى هاجس حماية العقيدة من الشرك، وحماية الأوطان من شراك الاستعمار سيرا على منهج السلف. الشيء الذي جعل مقترحات البيعة هي اللبنة الأولى لانطلاقة العمل الوطني في بداية القرن العشرين، والذي بدأ بتجمعات سرية صغرى، هدفها التوعية بأهمية هذه المقترحات التي أصبحت مبادئ آمن بها كل الغيورون على مصلحة الوطن، مستلمين المشعل بعد استشهاد المصلح الكبير، والوطني الغيور محمد بن عبد الكبير الكتاني، الذي لو اقتصر مشروعه الإصلاحي على رفض مقررات مؤتمر الجزيرة، ومقترح تكوين جيش قوي، والدعوة للجهاد، ومجلس الشورى، لحق تسميته بالمجدد والمصلح، الذي سعى جاهدا للتغيير في ظل الوحدة بين العلم والسلطة، لكن لم تكن هذه التجربة استثناء، إذ التاريخ يكشف ندرة وجودها، وحتى إن وجدت أجهضت بطريقة أو بأخرى، كما أجهضت تجربة الكتاني، ليشكل استشهاده نهاية فصل من فصول سيرة رجل، ضحى بكل ملذات الحياة ومتعها في سبيل أن يتحقق الإصلاح، لكن شاءت الأقدار أن أقبر هو وأقبرت معه قناعة الوحدة كما الإصلاح، بعدما تحققت قراءته للمستقبل، بحدوث ما كان ينبه إليه السلطان، حيث أجبر المولى عبد الحفيظ على تصرفات كبلته وجعلته عاجزا عن مقاومة الضغوط الفرنسية اللامتناهية، التي ستتوج بعقد الحماية في 30 مارس 1912م."**بينما كان الواجب الوطني وواجب الشرف والكرامة والرجولة، يقضي على خصوم الشيخ بتلبية نداء الواجب الوطني... وقع العكس، وكانت الكارثة...باستشهاد الشيخ ظلما، وفتح الباب على مصراعيه لاحتلال الفرنسيين لبلادنا"**[1].

[1] شهادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، "أشرف الأماني"، ص 53

المصادر والمراجع

- بنعبد الله عبد العزيز، "معلمة التصوف الإسلامي"، دار نشر المعرفة، الطبعة الأولى 2001.

- بوعياد، العربي بن العربي "نسيم وادي العقيق في مناقب شيخنا سيدي محمد بن الصديق" تحقيق التجكاني بشرى، أطروحة الدكتوراه، السنة الجامعية 1432 - 1433هـ/ 2011- 2012م.

- التمسماني، عبد العزيز خلوق، "المقاومة المغربية الدبلوماسية للهيمنة الفرنسية (1904- 1905) "، مجلة دار النيابة، السنة الخامسة - العدد 17 شتاء 1988.

- جريدة السعادة، الاثنين 27 محرم 1323/ 13أبريل 1905.

- جريدة "لسان المغرب"، العدد 31، الجمعة 1 ربيع الأول/ 3 أبريل 1908.

- حركات، إبراهيم "تاريخ المغرب"، ج 3، الطبعة الثانية 1415هـ/1994، دار الرشاد الحديثة.

- روجي لوطورنو، "فاس قبل الحماية"، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1406/ 1986.

- السملالي، العباس بن إبراهيم "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام"، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1413/ 1993.

- ابن سودة، عبد السلام بن عبد القادر، "إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع 1171-1400هـ/ 1756-1980م"، تنسيق وتحقيق محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1417هـ/ 1997م.

- الفاسي علال" الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"، مراكش، لجنة الثقافة الوطنية لحزب الاستقلال.

- الفاسي، عبد الحفيظ "معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب"، تحقيق عبد المجيد خيالي، منشورات علي بيضون، بيروت، دار الكتب العلمية.

- الكتاني، محمد الباقر، "ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد المسماة: أشرف الأماني في ترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني"، تحقيق نور الهدى عبد الرحمن الكتاني، بيروت- دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1426/ 2005

- المنوني، محمد "مظاهر يقظة المغرب الحديث"، بيروت- دار الغرب الإسلامي، الدار البيضاء- شركة النشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1405/ 1985

- المنوني، محمد بن عبد الهادي، ملخص الرسالة مقتبس من مساهمة الأستاذ ضمن كتاب أصدرته مشيخة الطريقة الكتانية تحت عنوان "مولاي إبراهيم الكتاني كما عرفناه" فكانت مساهمته هي هذه الوثيقة الرسالة التي نشرتها المجلة بهذا العنوان "موقف الشعب المغربي من مقررات الجزيرة الخضراء: مجلة دار النيابة، السنة الثانية، العدد 7- 1985/ السنة الخامسة العدد 17 شتاء 1988

- المنوني، محمد "شخصيات مجددة في مغرب القرن 19"، مساهمة في ندوة "تجديد الفكر الإسلامي" من تنظيم مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية، الدار البيضاء، 1407هـ، الطبعة الأولى، 1410هـ.

- الوزاني، محمد حسن،" مذكرات حياة وجهاد- التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية 1 طور المخاض والنشوء- مؤسسة محمد حسن الوزاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، دون تاريخ الطبع.